جهود الشيخ ماء العينين
في التأليف اللغوي

الباحث إبراهيم أوسي
أستاذ باحث، ضمن فريق البحث في التراث المغربي المخطوط
كلية الآداب جامعة ابن زهر، أكادير
المغرب

توطئة:

خلف علماء الصحراء وأدباؤها إنتاجا علميا وأدبيا غزيرا ومتنوعا في مختلف الفنون العلمية والأدبية.؛ كالتصوف والفقه وعلوم القرآن وعلم الحديث والتاريخ والفلك والطب والتوحيد والأسرار والتربية والنحو والعروض والبلاغة والرحلات، إلا أن هذه المؤلفات المتعددة والمتنوعة ما تزال في مجملها مخطوطة تحتاج إلى تحقيق وبحث ودراسة .... ستبرهن للباحثين والدارسين أن لأدباء وعلماء الصحراء مساهمات ثقافية متفردة، تصلح أن تنضاف لأصفى الحقب المغربية والعربية ازدهارا وجمالا في الخلق والإبداع1.

ويعد الشيخ ماء العينين (1328هـ /1910) من العلماء المشاركين إذ إن التأليف عنده اتسم بالكثرة والتنوع، وهي سمة قل نظيرها عند العلماء المغاربة، فقد ألف ما يناهز أربعمائة مؤلف في العلوم الشرعية؛ من فقه وتفسير وأصول الدين وتصوف السني وفي علوم اللغة من نحو وبلاغة وعروض وصرف وغيرها، ولسنا نجانب الصواب إن قلنا إن الصحراء المغربية لم تنتج خلال القرن التاسع عشر، علماء من الطراز الرفيع باستثناء الشيخ ماء العينين القلقمي الذي شكلت كتاباته العديدة وخزانته الخاصة المؤشر الأساسي المعبر عن وجود نشاط ثقافي في الصحراء[2]

وتأتي هذه المداخلة في سياق التعريف بالإنتاجات العلمية التي ألفها الشيخ في مجال علوم اللغة بمعناه العام، من نحو وصرف وبلاغة وعروض ومعجم أي ما اصطلح عليه القدماء بعلوم الآلة التي لا يمكن لمن أراد التصدي إلى علوم الشريعة من فقه وتفسير أن يكون ملما بها.

تمكنه من العلوم

لا يختلف اثنان أن الشيخ ماء العينين قد أحرز قصب السبق في كافة العلوم الظاهرة والباطنة، ويعد من الأساطين الذين لا يشق لهم غبار، وقل أن يجود الزمان بمثله، فهذا سبطه ماء العينين بن العتيق يقول عنه في سحر البيان: "ولقد فاتحه الله تعالى في علم التفسير من معرفة ناسخه و منسوخه وأسباب نزوله وتفسير مبهمه ومعرفة موضوعاته اللغوية واشتقاقاته ومعرفة استعاراته ومجازاته المرسلة وكناياته وإيجازاته وإطناباته وغير ذلك حتى كأنه لم يشتغل بغيره، وقد جمع الفنون كلها من لغة ونحو وتصريف وبيان ومنطق وحساب زماني وعجمي وقسمة، وفقه وأصول وقواعد وعروض وطب وغير ذلك من العلم الظاهر، وأما العلم الباطن فهو أبو عذره وخاتمة دهره ومع ما أعطاه الله من العز والجاه لم يزل زاهدا متواضعا."[3]

أهمية علوم الآلة ومكانتها عند الشيخ ماء العينين

كان الشيخ على وعي تام بأهمية علوم اللغة في فهم الوحي من قرآن وسنة ولهذا عده من الفرض الكفائي، إذا قام به البعض سقط عن الكل يقول الشيخ ماء العينين "اعلم أن علم اللغة معرفته من أهم الأمور، ولذلك قال بعض المحققين: معرفة مفردات اللغة نصف العلم، لأن كل علم تتوقف إفادته واستفادته عليها، وحكمه أنه من فروض الكفايات كما ذكره السيوطي في (المزهر) قال: لأن به تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة، ولا سبيل إلى إدراك معانيها إلا بالتبحر في علم هذه اللغة، ولذا قال بعض العلماء:

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يضبط دين إلا بحفظ اللغات[4]

وسنحاول، جهد المستطاع، الإلماع إلى تلك الجهود التي بذلها الشيخ رحمة الله عليه في التأليف اللغوي ما يدل على إسهام علماء المغرب عامة، وعلماء الصحراء خاصة، في الدرس اللغوي تصنيفا وشرحا وتحليلا، وسنعمد إلى تقسيمها إلى المجالات المعرفية، بدءا بالنحو والصرف، مرورا بالعروض والأصوات والمعجم والبلاغة، وانتهاء عند الشروح اللغوية.

مؤلفاته في النحو:

1. هداية المبتدئين وهو نظم في النحو (163 بيت)، ألفه في الإسكندرية بعد قفوله من الحج (سنة 1257هـ) مطبوع حجري، وقد شرحه ابن أخته الشريف العالم ماء العينين بن الشيخ أحمد.

مستفتح بحمد من إذا نحا لنحوه عبد ينال المنحا
ثم الصلاة والسلام ملتحق على محمد فصيح من نطق
وبعد ذا فعلم النحو به تفهم غيره لذا فاجتبه

2مفتاح الافعال الثلاثة، وهو نظم بين فيه أوزان الأفعال الثلاثة وتصريفها ومصادرها.

3الأفعال التي يبنى فعل أمرها على حرف واحد.

في الصرف:

1- مفيد النساء والرجال في بعض ما يحوز من الابدال

وفيه ثلاث نسخ: الأولى عن المكتبة الفرنسية، والثانية عن جامعة فرايبورغ بألمانيا، أما النسخة الثالثة في عبارة مطبوع طبعة حجرية من مطبعة فاس بهامش كتاب تبين الغموض على نعت العروض، سنة 1902م.

وفي مقدمة المؤلف يقول: "الحمد لله الذي يبدل السيئات حسنات ويسهل علينا بتبديل الحروف في اللغات حتى صارت اللغة المتحدة كاللغات المختلفات واللغات المختلفات كاللغات المتحدات والسلامان على من أنزل عليه القرآن بسبعة أحرف متواليات، فهي ولو تخالفت لها التوافق في العربية والمعاني الجليات، وبعد. فيقول عبد ربه وأسير ذنبه ماء العينين بن شيخ الشيخ محمد فاضل بن مامين، غفر الله لهم وللمسلمين آمين، هذا توليف وضعته في تبيين إبدال بعض الحروف ببعضها، لعل الله ينفع بها أهل العلم في سمائها وأرضها، وإنما وضعته لما رأيت في إنكار بعض الناس لغة بعض حتى كأنما ما قيل بها عنده في سماء ولا أرض، وسميته مفيد النساء والرجال في بيان بعض ما جاز من الإبدال وجعلت منه أبوابا على بعض الحروف ليسهل تناوله للشريف وللمشروف وغير ذلك، أدمجته ليتبصر من به مشغوف والله أسأل أن ينفعني به وينفع به غيري من أهل العلم ويرزقني وإياهم التوفيق بأحسن الفهم.

فقد عرف رحمه الله في مقدمة الكتاب الإبدال بمعناه العام بقوله "تبيين إبدال بعض الحروف ببعضها" ثم أشار إلى الداعي الذي دعاه إلى تأليفه وهو الرد على منكري الإبدال في اللغة العربية:" وإنما وضعته لما رأيت في إنكار بعض الناس لغة بعض حتى كأنما ما قيل بها عنده في سماء ولا أرض.

في الأصوات:

-صفات الحروف الهجائية ومخارجها وأسمائها.

في المعجم:

. ثمار المزهر

وهو نظم كتاب المزهر للسيوطي يتكون من (2094 بيت). فرغ منه يوم الجمعة 27 شوال 1321 هـ، وطبع في مطبعة أحمد يمني بفاس سنة 1324 هـ/1906م، 122ص.

وقد قَدَّمَ لهذا اَلنَّظْم العالم الفقيه سيدي محمد بن عبد العزيز حامن، مقدمة غاية في الجمال والإبداع اللغوي قال فيها: "هذا تأليف من أحسن ما يسمح به الزمان، وتجود بإبرازه يد الأوان، لِمَا أبرز من جواهر النفائس وأسفر عن مُخَدَّرَات العرائس، فَقَرَّبَ لكل مُجْتَنٍ ثمار الفوائد بنضيرِ رياضه، وأشفى الغليل بسلسبيل حياضه، وأَيْنَعَ منها كل غصن مزهر فكان علَمه ثمار المزهر وكيف لا ومؤلفه الغطريف العلامة الهمام الدراكة الفهامة الإمام الذي أحاط بفنون الأدب واللغة إحاطة السوار بالمعصم، ونادته في مقام الافتخار بأن أَقْدِم فأنت المقدم، الجامع بين منصبي النسب الشريف والعلم الباهر المنيف، شيخنا الشيخ ماء العينين بن شيخنا الشيخ محمد فاضل بن مامين أسبغ الله على الراغبين نعمته وأتم عليهم منحته آمين"

وقد ضم هذا النَّظْمُ مقدمةً وأربعة وأربعين نوعاً من علوم اللغة من حيث الإسناد والألفاظ والمعنى، ثم أشار إلى بعض اللطائف اللغوية بالإضافة إلى حفظ اللغة وضبطها ومعرفة حال رواتها، وتطرق لمعرفة الشعر والشعراء والألغاز والملاحم وفتيا فقيه العرب، وكذلك تبيان طبقات الحفاظ والثقات والضعفاء وأخلاط العرب، وختم بخاتمة ذكر فيها تاريخ الانتهاء من تأليفه ثمار المزهر.[5]

يقول في مطلع المنظومة:

وبعد ذا فهاكمو أهل اللغات نظما يفيد في اللغات السائغات
نظمته من مزهر السيوطي كي يفيد ذا فصاحة وكل عي
نوعته كما له قد نوعا لكن ذا مختصر نظما سعى
سميته لِذا ثمار المزهر وصغته من جوهر كالجوهر

. منظومة في ألفاظ حققها صاحب القاموس في 22 بيتا.

في البلاغة:

6- سراج الفتيان على ياقوتة الولدان في علم البيان.

وهو منظومة في علوم البلاغة الثلاثة البيان والمعاني والبديع، مطبوع حجري يتألف من تسعة عشر لوحا موجود في خزانة أبي بكر بن محمد تقي الله.

يقول في مطلعها:

الحمد	لله	الذي	معاني	كتابه	أبدع	في	البيان
وصلواته		مدى	الزمان	على	الذي	شرف	للعدناني
وبعد	ذا	فعلم	ذا	البيان	راو	بما	أبداه	للأذهان
لأجل	ذا	نظمت	للولدان	فيه	نظيما	راو	للفتيان
يجمع	للفنون	من	معاني	مع	البيان	والبديع	العاني
وقبل	كل	يأتي	بالمقدمة	وبعدهم		يتلوه	بالخاتمة

في العروض:

1- تبيين الغموض على نعت العروض

ألفه الشيخ ماء العينين وأخرجه وعلق عليه الباحث محمد عيناق، ونشرته مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي وطبعته ليكون بين يدي القارئ، يتألف من تسعين صفحة، وقد اعتمد المؤلف في دراسته لعلم العروض على ما يسمى بترسيمة الدوائر التي حصرها في خمس دوائر، وهي المختلف (الطويل والبسيط والمديد)، والمتفق (المتقارب والمتدارك) والمؤتلف (الوافر والكامل)، والمشتبه (الهزج والرجز والرمل)، والمجتلب (السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث).[6]

2- رسالة في أوزان البحور المتعارفة دون غيرها، توجد نسخة منه في مكتبة الدكتور الشيخ حمداتي ابن الشيخ الفضيل

في الشروح اللغوية:

وهناك العديد من الشروح اللغوية التي وظف فيها الشيخ علوم الآلة من نحو وصرف وعروض ما يدل على علو منزلته وعظيم شأنه في هذا الباب ومنه:

1- مفيد الحاضرة والبادية في شرح الابيات الثمانية، مطبوع حجري

2- فاتق الرتق على راتق الفتق

وهو شرح قصيدة من نظمه غريبة المباني، والغرابة تكمن في عدم تلاصق حروفها مع جودة معانيها وحسن مضامينها، فيها الكثير من المواعظ والنصائح، كتاب جماعي، تنسيق النعمة علي ماء العينين، نشرته مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 2001م.

يقول الشيخ ماء العينين مستهلا مقدمة كتابه "فاتق الرتق" في شرح قصيدته راتق الفتق: "الحمد لله جامع ما افترق ورازق من توكل عليه وبه توثق معين من تكسب بالشريعة وتحقق والسلامان على أفضل من عنه العرم انفتق محمد خير من تأخر من الكون ومن سبق وبعد، فقد كنت فيما غبر من زماني، قلت قصيدة غريبة المباني، لعدم تلاصق حرفين منها مع حسن المعاني، وضعتها في التوكل و عدم عيب ذي التكسب والحث على عدم إظهار الشماتة لمن مسه الدهر بالتنكب" .

(ص143-144 بتصرف)

خلاصة واستنتاجات

بعد هذا الجرد لأهم مؤلفات الشيخ اللغوية والتعريف بها يمكننا أن نستنتج ما يلي:

. علو مكانة الشيخ ماء العينين العلمية والفكرية الكبيرة وتضلعه في سائر العلوم المعروفة في الثقافة العربية والإسلامية.

. عناية الشيخ بمجال التأليف اللغوي وعيا منه بأهميته في فهم الوحي المنزل فهما صحيحا بعيدا عن أي تأويل لا يقبله العقل والمنطق.

. تراوحت مؤلفاته اللغوية بين النحو والصرف والبلاغة والعروض باعتبارها المفاتيح الأساسية التي تمكن الباحث من اقتحام عوالم النصوص واستكناه أسرارها وكشف غوامضها.

. جمعه بين التنظير والممارسة، فقد وظف علوم الآلة في كثير من مؤلفاته خاصة الشروح اللغوية.

. قلة الدراسات والبحوث التي اهتمت بمسألة الدرس اللغوي بالصحراء المغربية عامة وعند الشيخ ماء العينين خاصة.

الهوامش:

[1] منهجية تحقيق المخطوط الصحراوي، ماء العينين النعمة علي، مقال منشور في أعمال ندوة المخطوط في سوس والصحراء، جمعية الشيخ ماء العينين للتنمية والثقافة، مطبعة الأمنية، الرباط، 2015، ص99.

[2] مملكة الكتاب، فوزي عبد الرزاق ص 40.

[3] علماء وأمراء: ج1، ص20

[4] دليل الرفاق عن شمس الاتفاق: 90/1

[5] موقع الشيخ ماء العينين: www.cheikh-maelainin.com

[6] الشيخ ماء العينين، فكر وجهاد ص 263